الإيمان لُحمة سدى العلم والعمل

ألقاها: سماحة الدكتور عبد الحميد عشاق حفظه الله تعالى

قال الله تقدست أسماؤه: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[1].

الذين أوتوا العلم في هذه الآية الكريمة هم المؤمنون، وقد جُمع لهم الوصفان في مواطن أخر من القرآن كما في قوله جل شأنه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾[2]، وقوله: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾[3]

والآية ثناء على أصحاب رسول الله ﷺ بأنهم أوتوا العلم؛ وهو العلم بالوحي وعلم الدين، فإن نور النبوة سرعان ما يشرق في قلوب الذين يصحبون الرسل، وفي الآية إشارة إلى ترتيب مقامات الترقي والهداية إلى صراط العزيز الحميد، فبدأ بمقام العلم ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ أي ليزدادوا يقينا بأن الوحي الذي أوتوه هو الحق، ثم ثنى بمقام الإيمان، فقال: ﴿فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ﴾ فيزدادوا إيمانا مع إيمانهم، ثم ختم بمقام ثالث وهو مقام الإخبات ﴿فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡ﴾ أي: فيستقر ذلك في قلوبهم وتطمئن له، ﴿قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾[4].

والقلب مطية الترقي بين هذه المقامات الثلاثة، كما قال ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[5]. هذا القلب تتجاذبه قوتان: (قوة الهوى) وما تميل إليه النفس من الرعونات

---

(1) الحج: 54.
(2) الروم: 56.
(3) سبأ: 6.
(4) البقرة: 260.
(5) صحيح البخاري (مع الفتح): (20/1) ح52.

والأهواء، و(قوة الإيمان) أو قوة التصديق والاطمئنان بما استقر في القلب من المعارف والعقائد والقناعات.

فعندما يسمع المرء أذان الفجر ويريد أن يستجيب لـنداء الصــلاة، فإن صراعا يثور داخله بين إيمانه بوجوب أداء الصــلاة في الوقت، وبين هوى نفســه واشــتهائها الإخلاد إلى النوم. وكذلك عندما يقع المرء بين موقفين أحدهما يدعوه إلى ارتكاب الحرام، والثاني يدعوه إلى الثبات على الحق وعدم نكث العهد وخيانة الأمانة.

فالإيمان هو الدافع المولّد للسلوك الإيجابي: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾[6]. والهوى هو الدّافع للسّلوك السيء: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾[7]، معنى ذلك أنه **إذا لم ترق المعارف والقناعات الإيمانية إلى مستوى الإخبات والاطمئنان القلبي** بالقدر الذي يقاوم جيش الهوى المضاد لها، فإنها لن تترجم إلى سلوك عملي، ومن ثم يصبح كلام المرء وقناعاته في واد، وعمله وسلوكه في واد آخر، إذ لا يكفي المرء اقتناعه بالفكرة بل لا بد من تحويل الفكرة إلى إيمان عميق حتى يكون أقوى من جيش الهوى المضاد وينتصر عليه حين اتخاذ القرار.

وقال الرسول ﷺ: «إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله أن يجدّد الإيمان في قلوبكم»[8].

لعل هذا الحديث المقتضب عن الإيمان وعلاقته بالسلوك يفسر لنا ظاهرة ابتعاد الفعل عن القول، وابتعاد العمل عن العلم. فكلما ضعف الإيمان وفتر، ظهر الهوى وتمكّن؛ لأن ساحة الصراع واحدة هي ساحة القلب أو ميدان الإرادات، فيترتب على ذلك بروز مواقف متناقضة وتصرفات متضاربة تزيد وتنقص بحسب ما نسميه بضعف الإيمان.

فمن آثار هذا الضعف أنك قد تجد شخصا كثير الكلام عن المبادئ والقيم والأخلاق

---

(6) الحج: 32.
(7) القصص: 50.
(8) المستدرك على الصحيحين: (45/1) ح5.

لكنه يمارس عكس ما يتحدث عنه، وأحيانا تجده أول من يعتريه الضيق من حـــــاله أو التــبرم من واقعه، لكــنه لا يستطيع تعديله؛ لأن الهوى قد استحوذ عليه، وما دام الهوى يجلب علينا بخيله ورجله فلن يتجدّد الإيمان أبداً.

ومن آثار ضعـــــف الإيــمان كــذلك: التهاون فـــي حـــدود الله تعالى، والتكـــاسل والتراخي في تنفيذ أوامر الله، والبحث عن الرخص والأعذار، والاتكاء على الحـــــيل النفسية والــفكرية للتهرب مــن الحــق مع العلــم به.

ومن الآثار: عبـــــادة النفس والهوى، واهتمام الإنسان بالحسابات والخرائط المادية الدنيوية، ومنها عدم الحزن على فوات الطاعة أو الابتلاء بالمعاصـــي، وقد قال ســيدنا عبد الله ابن مســـعود: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مَرَّ على أنفه فنحاه»[9].

ومنها: الاستنكاف عن العمل واستثقال الطاعة بجميع أنواعها وصنوفها.

وخلاصــة القول: إن الإيمان كلما ازداد وخالطت بشــاشــته القلوب، انشــرح الصــدر ودبت الحياة فيه، وشــعر صـــاحبه بالســكينة والطمأنينة، وزاد شــفوفه وانتباهه ويقظته، وكلما اســتيقظ القلب من غفلته، زاد تشــميره لحرث الآخرة والســعي لها، وقلّ اهتمامه بالدنيا ورغبته فيها، وقويت رغبتــه فيما عــند الله تعالى.

وهنا يرد على الخاطر ســـؤال مهم يمثل ثمرةَ الحديث عن الآية ونقايتَه وهو: **كيف يبلغ العبد مقام الإخبات؟**

والجواب؛ بأن يجاهد نفسه على أربعة أمور:

1- إذا غلبت عصمته شهوتُه، فيقهر شهوته باعتصامه.

2- إذا غلبت ذكره غفلتُه، فيزعج نفسه من غفلتها بنيته الصّالحة وذكره الكثير...

3- أن يواظب على تزكية نفسه، ويحملها على ألم الطاعة، ويبعدها عن لذة أهوائها.

---

(9) صحيح البخاري (مع الفتح): (8/83-84) ح6308.

4- إذا غلبت محبّته لربه، فيطلب الأنس بقربه وكلامه وذكره وطاعته والشوق إليه.

وعلى ذكر طلب **أُنس القرب، وحلاوة الطاعة**، وأنه من أعظم معاني الإخبات، يروى: «أن العارف بالله ذا النون المصري سمع برجل صالح يعيش فى جبل المقطّم، فذهب اليه زائراً وأقام معه مدة، فلما أراد الانصراف سأل ذلك الصالح أن يدعو له بدعوة، فقال له: **آنسك الله بقربه،** فقال ذو النون: زدني. فقال الرجل الصالح: **من آنسه الله بقربه أعطاه أربعاً بغير أربع: علماً بغير طلب، وغنى بغير مال، وعزاً بغير عشيرة، وأنساً بغير جماعة. ألا يكفيك هذا؟** فبكى ذو النون وقال: **بلى والله تكفي وتزيد»**[10].

(10) تاريخ دمشق: (91/20) بنحوه.